تعليم اللغة العربية للكبار :
التعريب والقضية اللغوية بالجزائر
مقتطفات بحث ومسار باحث

بقلم : خولة طالب الإبراهيمي

منذ أكثر من عشر سنين عندما دخلت عالم البحث مثلما نركب البحر ، لم أكن أدري أنني أدخل ميداناً صعب المنال لم يقارب من قبل قط مقاربة علمية بل سادته خطابات الهوى والإيديولوجية واكتنفته عوالم الخطر والطابو ، قيل لي آنذاك هذا عالم ملغوم دعك منه . لكن عنادي وإيماني الراسخ بضرورة مواجهة الصعوبات أبعد كل الشكوك المريبة فصممت أن أدخل البحث في ميدان بكر يحتاج الى تأسيس أدوات في قضايا العربية وتعليمها[1] .

ومما زاد في تحفيزي وقوى عزيمتي ما جمعته من خبرة في التدريس بالجامعة والإهتمام كباحثة بهذه القضايا بالذات .

وقد كنت أعلم - ويبدو هذا بديهياً لكل مهتم بقضايا التعليم والتربية - أن كل عملية تعليمية تجري وتقع في محيط إجتماعي معين فشرعت في معاينة ما يجري في ساحة التعريب وتعليم اللغة العربية للكبار وأدهشني وأذهلني ما شاهدته إذ أن ما يجري من ممارسات في هذا المجال يشكو من اختلالات كثيرة في المنهجية والطرق المتبعة ، في عدم مناسبة ملمح المكونين لجمهور المتعلمين والأدهى من ذلك فقد لاحظت أن كل المحاولات التي تمت كانت تتم في جهل

(1) توج هذا البحث بمناقشة رسالة دكتوراه الدولة في الآداب والعلوم الإنسانية 6 أكتوبر 1991 ، بجامعة ستندال بمدينة غرونيل .

تام لكل ملابسات القضية اللغوية بالجزائر وملابسات العملية التعليمية ، لا يكترث بالمتعلمين بحاجياتهم ولا خصائصهم الخ ...

فعزمت ودافعي دافع الباحثة والأستاذة في نفس الوقت أن أمعن النظر في كل هذه الملابسات وحاولت وصف حال واقتراح بديل لأنني وبإرادة قوية قررت أن أدرج عملي في البحث التطبيقي العملي الذي لا يكتفي بالرصد والبحث والتحليل بل يحاول أن يؤثر في الواقع الذي يعاين ويحلل[2] .

إنطلاقاً من كل ما سبق ، شرعت ولسنوات طوال في مقاربة أصيلة جديدة ومجددة لقضايا تعليم اللغة العربية للكبار وتعتمد على مبادئ النظريات الحديثة في تعليمية اللغات وخاصة منها المنهجية المفهومية الإدراكية والتواصلية التبليغية ، تلك الإحتياجات التي تعبر في حقيقة أمرها عن مشروع (صريح أو غير صريح ، واقعي أم غير واقعي) نابع عن تفاعل المتعلم الفرد المتكلم المخاطب بمحيطه الإجتماعي (لا ننس أن مشروع التعريب وإن كان يخص كل فرد منا فإنه مشروع جماعي اضطلعت به الدولة ورفعته الى درجة مهامها الكبرى) .

تأكدت لدي إذن من هنا ضرورة مساءلة الواقع الجزائري في كل أبعاده التاريخية والسياسية والإجتماعية والأنثروبولوجية مسلطة الضوء على ملابسات القضية اللغوية ببلادنا وعلى قضية التعريب خاصة لأنها تشكل محمور التوتر في المسألة فكانت مقاربتي متعددة المحاور ، عنيت في محورها الأول بالتحليل «الماكرو اجتماعي» للوضعية الجزائرية المتسمة بعدم الإستقرار والتي تعرف تحولات سريعة بفعل عوامل متعددة ، وضعية تنحو في ملامحها الحالية نحو تكوين سلم استمراري[3] من المستويات اللغوية يقابل بمرونته والإمكانيات التي

(2) ما يعرف في اللغة الفرنسية بـ Recherche Action .

(3) أنظر : مفهوم السلم الاستمراري Contnu في الكتاب الذي صدر لنا في دار الحكمة السنة الماضية (1995) بعنوان «الجزائريون ولغاتهم» .

يوفرها للمتكلمين الجزائريين آثار التوزيع الثنائي للتصوّرات اللغوية وهو توزيع يحدّد لكل لغة مستعملة في بلادنا مكانتها ويحدّد طبيعة العلاقات التي تربطها مبنية على مفهوم الهيمة الرمزية أو النفوذ الرمزي تشكل عند تداخلها شبكة من المرجعيات المتنافرة مصدراً لصراعات فردية وجماعية شهدنا ولا نزال نشاهد مظاهر على الساحة السياسية واللغوية الثقافية الجزائرية . ووجدت نفسي مضطرة الى مراجعة المفاهيم التي تدعي عادة لوصف الوضعية اللغوية الجزائرية مثل الازدواجية والثنائية فأبرزت عدم نجاعتها في وصف وضعية معقدة مثل التي نشاهد ونعيش[4] .

أما المحور الثاني فتمثل في تحديد النظرة في مسار التعريب في ملابساته التاريخية والسياسية والإجتماعية واللغوية والتعليمية لأن قرار التعريب هو الذي جعل فئات عديدة من المتعلمين تبني مشروعاً لتعلم اللغة العربية وإعادة تعلمها : «قرار التعريب هو الذي أثار الحاجة على حدّ تعبير أحد المتعلمين» .

ثم يأتي المحور الثالث لمقاربتي للمحيط الاجتماعي اللغوي الذي يعيش فيه المتعلمون فخصصته للتحليل «الميكرو اجتماعي» حيث حاولت فيه أن أحدّد وضعيات التبليغ التي يمكن أن يجد المتعلمون المتكلمون أنفسهم مندرجين فيها حياتهم الاجتماعية والمهنية وقد تمّ ذلك بتشخيص العمليات اللغوية التبليغية التي يؤديها المتكلمون في وضعيات واقعية . ومن تم تسنى لي تحديد الاحتياجات الموضوعية التبليغية للمتعلمين التي موازه النظر في احتياجاتهم الذاتية والاستماع الى رغباتهم فصنفتها الى الأصناف التالية :

☆ الحاجيات التعبيرية التبليغية العامة ،

☆ الحاجيات التعبيرية التبليغية المتعلقة بالنشاط المهني ،

☆ الحاجيات التعبيرية التبليغية بالصنعة أو التفكير في اللغة ،

(4) أنظر نفس المرجع .

☆ الحاجيات التعبيرية التبليغية بمهنة التعليم (وذلك لأن جمهور الأساتذة الجامعيين يشكل لأسباب موضوعية وتاريخية معروفة نواة العينة التي درستها) .

ثم ترجمت في صورتها التعليمية في أهداف إجرائية تجمع بين الأهداف العملية والأهداف الثقافية إذ أن التعليم لا ينحصر في تعليم بناها بل هو تعليم ثقافة وحضارة لأنني اعتقد أن عملية التعريب التي شملت فئات عديدة من المتعلمين الكبار غير الأميين[5] لم يكن يعني تعلم لغة في حد ذاتها بل يعني تعلمها للتحكم في استعمالها في كل مجالات حياتهم لتصبح لغتهم على حد تعبير أحدهم ، اللغة التي يعيشون بواسطتها العالم والحياة . فكان عليهم أن يتحولوا من تكوين مفرنس مداره اللغة الفرنسية وثقافتها الى تكوين معرب مداره اللغة العربية وثقافتها . فلضمان هذا التحول عمدت الى تحديد أهداف إجرائية دقيقة ووظيفية وفي الوقت نفسه الى تجاوز هذا البعد الوظيفي بإدراج العناية بعبقرية اللغة في أبعادها الحضارية ومخيلتها الرمزية والثقافية ولن يتأتى ذلك إلا بإعادة النظر في معالجة اللغة العربية فحرصت على وضع أسس جديدة لتناول هذه اللغة من خلال محاولة لوصف أهم أفعال الكلام في العربية وحوصلة خصائصها النحوية في مقاربة بنوية تداولية دينامية تبرز أهم الوسائل التي تمدها اللغة في انتظامها العجيب لمستعمليها وفي الأخير هممت الى وضع أسس منهجية لتحليل النصوص المنطوقة المسموعة والمكتوبة ، كل هذا لتقديم أدوات تحليلية جديدة تهدف الى إرساء المبادئ الأولى لتنظير جديد للغة العربية بجمع بين جدة البحث اللغوي المعاصر وأصالة التفكير العربي القديم .

في الوقت نفسه واستجابة لإشكالية تجديد الممارسات التعليمية وتقويمها قدمت حصيلة تجربة رائدة تؤسس لبعض الجوانب الأساسية في تعليم اللغة

(5) محور الأمية لم يكن من اهتمامنا .

العربية للكبار (يمكن أن تستغل للمراحل الأخرى من التعليم أيضاً) وذلك من خلال طرح بعض الإشكاليات للبحث ومحاولة اقتراح الحلول لها وتتمثل في إشكالية المنطوق والمكتوب وبالتالي إشكالية الإنتقال من العامي الى الفصيح في التعلّم والتعليم أخيراً إشكالية معالجة النصوص لتعليمها أي إشكالية اختيار المحتويات اللغوية وتحضيرها للتعليم .

ولكن لم أتوقف عند المساهمة المنهجية اللغوية والتعليمية بل سنحت لي الفرصة الى تجاوز ذلك الى مرحلة الوضع المنهجي فكانت الحصيلة طريقة لتعليم اللغة للكبار سمينا أنا وزميلتي (وقد شاركتني في الوضع أذكر الأستاذة شريفة غطاس) «اللغة العربية سهلة ووظيفية» ثم تنظيم بعض المسارات التعليمية الفردية في إطار ما سمي بالتعليم الذاتي الموجه وفي الأخير محاولة في توظيف التحليل النصي كقراءة النصوص وإنتاجها (النصوص الثقافية العامة والمتخصصة العلمية)[6] وقد تمّ تجريب هذه الحصيلة حيثما استطعت وفتحت لي الأبواب . كل هذه المحاولات لا تزال حبيسة الأدراج لم نجد من يساعدنا على نشرها ولكن من منا لا يعرف مشاكل النشر العلمي في بلادنا .

ولكن لست ممن توقفه العقبات على العمل الدؤوب فالبحث العلمي معاناة فيها متعة كبيرة لمن يصبر لها ويثابر مثلما تعودت أن أقوله لطلبتي الباحثين الناشئين . يكفيني فخراً أنني أحاول جاهدة أن أعمل من أجل تغيير النظرة الى قضايا اللغة والتعليم لنرفع بذلك تحديات الحاضر والمستقبل .

خولة طالب الإبراهيمي
أستاذة محاضرة بمعهد اللغة العربية وآدابها
جامعة الجزائر

(6) أنظر : المقال الذي صدر لنا في هذا الشأن في العدد الثامن من مجلة اللغة والأدب لجامعة الجزائر .